

المجلد: 08/ العدد 2 ديسمبر (2024)، ص.ص. 255-264

سؤال الهوية - مقارنة ثقافية لغوية-

The question of identity - a cultural-linguistic approach-

د. بكوش جميلة.

djamila1971@gmail.com

المدرسة العليا للأستاذة - مستغانم

(الجزائر)

تاريخ النشر: 2024/12/02

تاريخ القبول: 2024/09/24

تاريخ الاستلام: 2024/07/01

ملخص:

تتخذ الهوية مفهوماً مفتوحاً، ومتشعباً، لأنها تتأسس على خصوصيات ثقافية، ولغوية، و معرفية، تشكل التميز الوجودي للأنا، يقوم على وعي بالانتماء، ويصطدم بروافد فاعلة، وعلاقات شائكة، تفرضها أنماط الحياة السائلة، وبعض المنعطفات الفاصلة في التاريخ، لذلك يهدف هذا البحث إلى مقارنة سؤال الهوية في بعديها الثقافي واللغوي، ودورها في ترسيخ معالمها، بمنهجية تحليلية وصفية، فكيف تسهم الثقافة واللغة في تأصيل الهوية بملاحمها الثقافية وأصولها اللغوية؟ هل للتعدد اللغوي والتنوع الثقافي دور في تقويض الهوية أو يعززان تميزها؟
الكلمات المفتاحية: الهوية، الثقافة، اللغة، الهوية الثقافية، الانتماء.

Abstract:

Identity takes an open and complex concept, because it is founded on cultural, linguistic, and cognitive particularities that constitute the existential distinction of the ego. It is based on an awareness of belonging, and it collides with active tributaries and thorny relationships imposed by fluid lifestyles and some turning points in history. Therefore, this goal aims The research approaches the question of identity in its cultural and linguistic dimensions, and their role in consolidating its features, with a descriptive analytical methodology. How do culture and language contribute to consolidating identity with its cultural features and linguistic origins? Do linguistic diversity and cultural diversity play a role in undermining identity or enhancing its distinctiveness?

Keywords: identity, culture, language, cultural identity, belonging.

1. مقدمة:

تُحدد خصوصيات الهوية، بوصفها مفهوماً شاملاً في مجال العلوم الإنسانية انطلاقاً من الأطر التي تُشكل أبعادها التي ترسمها الثقافة، وتعرّزها اللغة، ويرتبطها الانتماء، وغيرها من المعالم، التي تنسج عوالمها، وتقيم مشها، فإذا ما تزعزعت هذه الأبعاد، فإن أركان الهوية تنقوض إلى حد الانهيار أمام ما قد تعرفه اللغة من صراعات أو تراجع عن دورها، أو ما يعتور الثقافة التي تشكل ملمحاً بارزاً للهوية في وحدتها وتميزها من أحوال وأعراض قد تتنافى مع قيمها وعاداتها، لذلك جاء بحثنا بدواعي الوقوف على الدور الذي تؤديه اللغة التي يتواصل بها أفراد المجتمع في مدارات انتماهم، في تعددها، ودلالاتها، وأينيتها، وكل ما يشكل خصائصها، والثقافة بوصفها كلاً مركباً من المقومات والمعارف وممارسات الأفراد في المجتمع بما يعكس سلوكياتهم

وأنماط حياتهم في تجاورها وترباطها وتداخلها مبلورة جوهرها وواقعها في ترسيخ معالم الهوية، متسائلين عن الطريقة التي نضون بها هويتنا الثقافية، ومدى إسهام اللغة والثقافة في تعزيز الهوية الثقافية بما يرسخ تمايزها وتفردها عن غيرها من الهويات، ويحميها من ما قد يلحقها من أزمات قد تحولها إلى هويات قاتلة؟

2. مفاهيم أساسية:

1.2. الهوية: في تتبعنا لمسار حياة لفظة [هوية]، كيف شبت، واغتنت، وهل تغير مدلولها بمقتضيات المعطيات الحضارية التي تولد مع تطوّر المعارف الإنسانية كل يوم، عُذنا إلى معجم المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء الكفوي [ت 1094هـ/ 1683م]، جاء فيه أن لفظ [الهوية] يطلق على معانٍ ثلاثة: التشخيص والشخص نفسه والوجود الخارجي، قال بعضهم: ما به الشيء هُوَ هُوَ باعتبار تحققه يسمى حقيقة ذاتا، وباعتبار تشخصه يسمى هوية، وإذا أخذ أعم من هذا الاعتبار يسمى ماهية، وقد يسمى به الشيء هُوَ هُوَ ماهية إذا كان كليا كما هيّة الإنسان، وهوية إذا كان جزئيا كحقيقة زيد، وحقيقة إذا لم يعتبر كليته وجزئيته، وقال بعضهم: الأمر المتعلّق من حيث أنّه مقول في جواب (ما هو) يسمى ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج يسمى حقيقة، ومن حيث امتيازه عن الأعيان يسمى هوية، ومن حيث حمل اللوازم عليه يسمى ذاتا، ثمّ الأحق باسم الهوية من كان وجود ذاته من نفسها وهو المسمى بواجب الوجود المستلزم للقدّم والبقاء.⁽¹⁾

والهوية: حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية، وذلك منسوب إلى (هُوَ)، والهوهو: لفظ مركب من هوهو جعل اسما مُعرّفا باللام ومعناه الاتحاد بالذات⁽²⁾، ومن ثمّ فإنّ الهوية تُشكّل عناصر ذاتية تحقّق للشيء أو للفرد استقلاليته، لذلك غدّت إشكالية الهوية موضوعا للتفكير الفلسفي منذ أقدم العصور إلى الآن؛ وعلى الرغم من اختلاف المصطلحات التي استعملت في العصور القديمة والوسطى والحديثة مثل كلمات ماهية- جوهر- إنية- ذات... فإنّ الفكر الميتافيزيقي والفلسفي كان يبحث في ما هو وجودي (أنطولوجي) يميّز بالوحدة الداخلية والثبات في الزمان والمكان، لينقله للمجال المعرفي (الابستمولوجي) بالتأمّل العقلاني المحض كما هو الشأن في المنطق الصوري عند الفلاسفة الإغريق والمسلمين⁽³⁾ وذلك حينما نقلت الفلسفة الوسيطة مفهوم "الهوية" من سجلّ الانطولوجيا حيث عملت الفلسفة العربية من الكندي إلى ابن رشد إلى مجال نظرية المعرفة، حيث أصبح يدلّ على معنى الذات الذي تقرّر أوّل أمره من خلال مفهوم "الشيء المفكر من حيث الصيغة المدرسية التي انقلبت لاحقا إلى عبارة "الأنا أفكر" أو "الكوجيطو Cogito"، يرى مالك بن بني هنا أنّ (الذات) هي (الأنا) وينقل تعريف "يونغ" بأنّ "الأنا هي جزيرة صغيرة في مجال غير محدود يُمثّل اللا شعور"⁽⁴⁾ وبهذا يكون قد انزاح مفهوم "الهوية" (الوجود) مع الفلسفة الحديثة إلى "الذات" أو "الأنا أفكر" وذلك يجعل معنى "الهوية" - الوجود نفسه مستنبطا من واقعة "الأنا" أفكر.⁽⁵⁾

وقد انتهى مصطلح الهوية مؤخرا، إلى إثارة تفاصيل إشكالية متعدّدة منها ما يدخل في تفاصيل علاقة الأنا الفردية بالآخر (الفردية والجماعي)، ومنها ما يتعلق بعلاقة الأنا الجمعية بالآخر الجمعي، وتبرز هذه الأنا حاملة لخصوصيتها مدافعة عنها إزاء رغبة الآخر في نفيها، ويرى بعض الباحثين أنّ كلمة "هوية" في مفهومها المفتوح ليست أحادية البنية، أي لا تتشكّل من عنصر- واحد لها، هو العنصر- الديني وحده، أو الإثني القومي وحده، أو اللغوي وحده، أو الثقافي الوجداني والأخلاقي وحده أو المصطلحي وحده، أو الخبرة الذاتية أو العلمية وحدها. وإنّما هي حصيلة تفاعل هذه العناصر جميعا⁽⁶⁾، وهذا دليل على أنّ الهوية تسهم فيها عناصر متنوعة، منها: الدين واللغة والالتقاء والدولة والثقافة... وغيرها.

وفق هذه المعايير والمشاعر التي تميّز الهوية، فإنّ الهوية لا تعطى مرّة وإلى الأبد، على حدّ قول أمين معلوف، فهي تتشكّل وتتحوّل على طول الوجود، ولا توجد فينا كلها عند الولادة، ولكن تلتحم مع الوقت، وذلك حين ردّه على سؤال طرح عليه مرات عديدة، هل هو فرنسي- أو لبناني؟ يجيب أنّ «الهوية لا تتجزأ أبدا، لا تتوزع أنصافا أو ثلاثا أو مناطق منفصلة... بل هوية واحدة مكونة من كلّ العناصر التي

شكلتها وفق "معايرة" خاصة تختلف تمامًا بين رجل وآخر»، ويشير هذا الرد إلى أن الهوية المركبة قد تتلاقى في كل واحد من انتماآت متعددة تتعارض فيما بينها وتجبره على خيارات ممّقة، ولكنه في قرارة نفسه، يجيب محددًا عناصر الهوية، ومقتصيا أكثر من انتماء: «أنّ للهوية انتماء واحدًا مُهمًّا، هو حقيقته العميقة، قرارة النفس، التي تميّز كل ذات عن الأخرى بشكل ما، جوهره، يتحدّد عند الولادة مرّة إلى الأبد، ولا يتغيّر أبدًا، بغضّ النظر عن مسيرته، وقناعاته المكتسبة، وميوله، وحياته، الهوية إذن هي أن نحدّد في أعماقنا ذلك الانتماء الأساسي الذي غالبًا ما يكون دينيا أو قوميا أو عرقيا أو إثنيا»⁽⁷⁾.

2.2. عناصر الهوية: الهوية واحدة، تتشكل من حالات خاصة، نعيشها بوصفها كلًّا متكاملًا ولكنها تتشكل من انتماآت متعدّدة، وفق تراتبية بين هذه الانتماآت، إن أيّ انتماء لا يسود أو لا يرافقنا بالمستوى نفسه بشكل مطلق، وإتّما تتغيّر تراتبيته، والعناصر هي الانتماآت المكوّنة للشخصية، أو "مورثات" مع التأكيد أنّ معظمها ليس فطريًا، كما أنّها نسبية، ليست ثابتة، تتغيّر مع الزمن، وهي:⁽⁸⁾

1.2.2. عناصر مادية وفيزيائية:

- الحيازات: الاسم، الآلات، الموضوعات، الأموال، السكن، الملابس.
- القدرات: القوة الاقتصادية، والمالية، والعقلية.
- التنظيمات المادية: التنظيم الإقليمي، نظام السكن، نظام الاتصالات الإنسانية.
- الانتماءات الفيزيائية: الانتماء الاجتماعي، التوزعات الاجتماعية، والسمات المورفولوجية الأخرى المميّزة.

2.2.2. عناصر تاريخية:

- الأصول التاريخية: الأسلاف، الولادة، الاسم، القرابة، الأبطال الأوائل.
- الأحداث التاريخية الهامة: المراحل الهامة في التطور، التحولات الأساسية، الآثار الفارقة، التربية والتنشئة الاجتماعية.
- الآثار التاريخية: العقائد والعادات والتقاليد، المعايير التي وجدت في المرحلة الماضية.

3.2.2. عناصر ثقافية نفسية:

- النظام الثقافي: المنطلقات الثقافية، العقائد، الأديان، الرموز الثقافية، الإيديولوجيا، نظام القيم الثقافية، ثم أشكال التعبير المختلفة (فن، أدب).
- العناصر العقلية: النظرة إلى العالم، نقاط التقاطع الثقافية، الاتجاهات المغلقة، المعايير الجمعية، العادات الاجتماعية.

- النظام المعرفي: السمات النفسية الخاصة، اتجاهات نظام القيم.

4.2.2. عناصر نفسية اجتماعية:

- أسس اجتماعية: اسم، مركز، عمر، جنس، مهنة، سلطة، واجبات، أدوار اجتماعية، نشاطات، انتماآت اجتماعية.

- القيم الاجتماعية: الكفاءة، النوعية، التقديرات المختلفة.

- القدرات الخاصة بالمستقبل: القدرة والإمكانية، الإثارة، الاستراتيجية، التكيف، نمط السلوك.

ووفق ما ذكرناه سابقًا فإنّ الإنسان في تعريف نفسه، أو جماعة ما، فإنّه يختار بعض المعايير أو السمات، لأنّ الهوية تتشكل من حالات خاصة، نادرا جدا ما يشمل تعريفا هذه الانتماآت كافة، لا وجود لهويات ثابتة، ومنجزة، نبحث عن الثابت والمتغيّر، ولو أنّ الثبات مُهم في الهوية لأنّه لا يمكن أن تضع هوية في هوية الآخر، فالهوية هي ما تجعلني أتمايز عن أيّ شخص آخر وأختلف عنه.

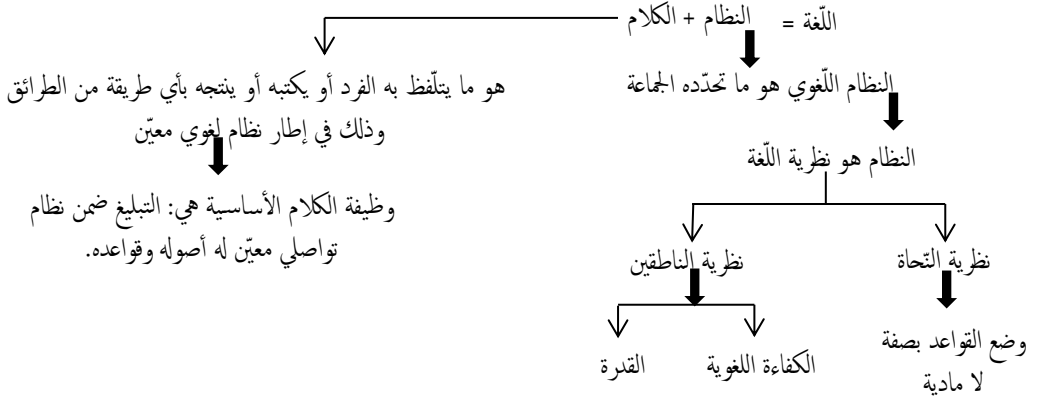
3.2. اللغة: تختلف تعريفات اللغة، وذلك وفق الزاوية التي ينطلق منها كلّ باحث، وانطلاقا من

(السياق) الذي يحدّد مفهومها، ننطلق من تعريف اللغوي ابن جني [ت 392 هـ]: « أنّها أصوات يعبر بها

كلّ قوم عن أغراضهم»⁽⁹⁾ ، وفي هذا التعريف نجد بعض العناصر الأساسية التي وقف عندها بعض الباحثين اللغويين المحدثين في تعريفهم للغة، إذ هي رموز وإشارات صوتية لها دلالات أو معان، تم التواضع عليها، كما نجد لمصطلح (اللغة) أكثر من مفهوم: اللغة: اللهجة، فيقال: لغة هذيل، لغة تميم، لغة قريش ويُراد بها لهجات هذه القبائل. اللغة: اللسان، فيقال: إنا نتكلم بالعربية، نقصد بذلك: اللسان العربي، كما يقال نزل القرآن بالعربية، أي باللسان العربي، اللغة: المعطيات اللغوية التي ضمتها المعاجم وكُتِبَ اللغة، فيقال: فلان لغوي، لأنه قام بجمع ألفاظ اللغة ومفرداتها من أماكن يعتقد سلامة لغة أصحابها الذين لم تتأثر لغاتهم بالاختلاط بالأُمم الأخرى، وربما كان الأصل في معنى (لغة) الانحراف، تقول العرب، لغا فلان عن الطريق أي انحرف عنه.⁽¹⁰⁾

كما يُحدّد مفهوم اللغة بأنّها وسيلة اتصال أو نظام رمزي للتواصل، فهي نظام تواصلية أو نشاط تواصلية يقوم على استعمال العلامة اللغوية لإنجاز أفعال تواصلية، وإذا كانت اللغة نظاما تواصلية، فهي أيضا موضوع للإيديولوجيات المختلفة، موضوع لتقارب الأفراد والشعوب، وأحيانا موضوع للتباعد والنفور، بل قل موضوع للحب والكراهية. كما يرى بعض الدارسين أنّ اللغة ظاهرة اجتماعية، شأنها شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى، بل يرى آخرون أنّ اللغة اجتماعية قبل كل شيء، وهي جزء من ثقافة الأقوام⁽¹¹⁾. تجسّد فكر الفرد في تواصله مع أفراد المجتمع، فهي تجمع بين الذهني والفكري والحسي- في التواصل والتعبير عن أغراض القوم، وهي عرضة للتطور المطرد في مختلف عناصرها، أصواتها وقواعدها، ومنتها، ودلالاتها، وليس في قدرة الأفراد أن يوقفوا تطوّر لغة ما، فانتقال الأمة من البداءة إلى الحضارة مثلا يُهدّب لغتها، ويسمو بأساليبها ويوسع نطاقها.

ومن اللسانيين من يركّز في تعريفه للغة على الجانب الاجتماعي والثقافي [سبير Sapir في كتابه اللسانيات]، يرى أنّنا نتكلم بصفة طبيعية كما نمشي- أو حتى أحيانا كما نتنفس، ولكن تغير اللغة غير مرتبط بالظواهر الاجتماعية وحدها، فهي تتأثر بالبيئة الجغرافية، أو باختلاف الشعوب في خواصها الجسمانية الوراثية أو بعدد السكان الجدد الذين هجروا لغتهم القديمة، واعتنقوا لغة جديدة [افتتاح العرب على غيرهم بعد الفتوحات الإسلامية مثلا] إلى جانب تأثرها ببنية اللغة نفسها ومنتها وقواعدها وطبيعة أصواتها وتفاعلهما بعضها ببعض وموضع الصوت في الكلمة... وهذه العوامل الأخيرة على وفرتها ليست شيئا مذكورا بجانب آثار العوامل الاجتماعية⁽¹²⁾، كما ترى دراسات أخرى منها اللسانيات غير الوظيفية أنّ اللغة هي النسق المجرد، بقواعدها غير المرتبطة بذات معينة لأنّها قواعد في الذهن، تتميز بها لغة عن غيرها من ناحية، والتحقيق العملي والمادي لهذا النسق في الممارسة الفعلية للأفراد من ناحية ثانية، وإذا كانت اللغة هي النسق المجرد الذي يقع وراء الكلام، فإنّ الكلام هو التحقق الفردي لهذا أو الممارسة الفعلية له، والرسم البياني يوضح العلاقة بين اللغة والكلام:



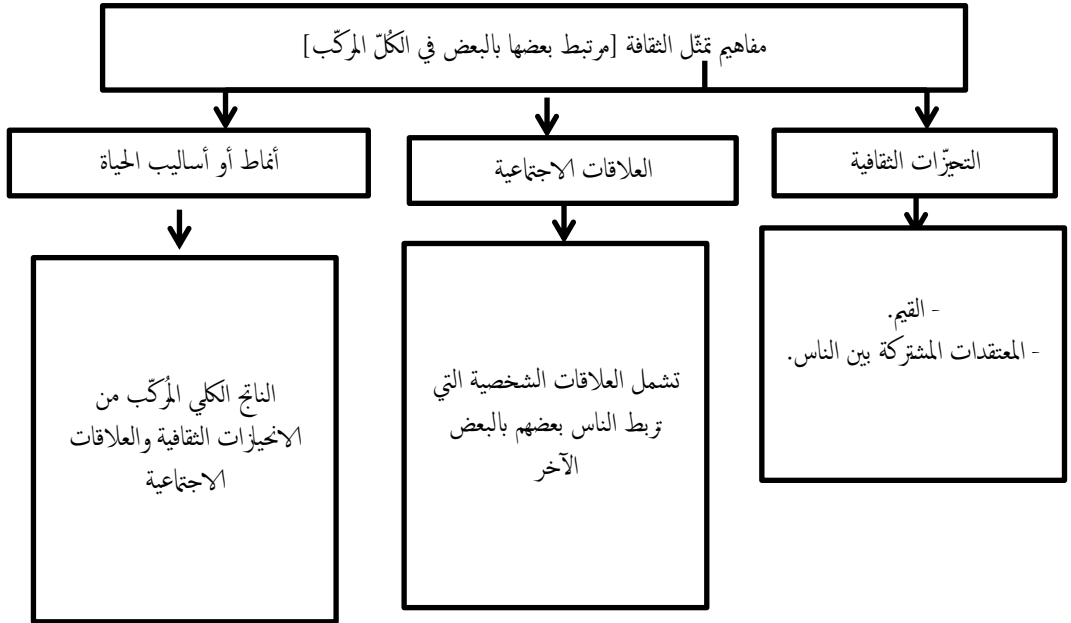
الشكل 1: العلاقة بين اللغة والكلام

4.2. عوامل تطور اللغة ودورها في صون الهوية: يرجع تطور اللغة إلى جملة من العوامل الكثيرة التي تتأثر بها، منها الاجتماعية متمثلة في عادات الأمة وتقاليدها، وحضارتها، وثقافتها، ومظاهر نشاطها، ومنها الثقافية، إذ يسهم الاحتكاك المادي والثقافي بين أمتين أو شعبين في تأثر لغة بأخرى تطوراً وتوسّعاً وإثراءً، كما يؤدي الجانب الأدبي دوره في تطور اللغة وتعزيز معالم هويتها إذ تستمد اللغة تطورها من آدابها، وما يبذله المبدعون والمفكرون من أجل ترقيةها في تاجاتهم الأدبية والفكرية، إضافة إلى العامل التعليمي التربوي المتمثل في جهود المدارس والمعاهد والجامع اللغوية التي تشكل الحاضنة الأولى والعامل الأبرز في تطويرها وحمايتها من كل ما يزعزع ثوابتها أو يؤثر في خصائصها وسننها، هذا إلى جانب إسهام هذه المؤسسات التعليمية وجهود الأدباء والمفكرين في نقل التراث اللغوي من السلف إلى الخلف، ولطبيعة اللغة ذاتها دور في تطورها .

5.2. الثقافة: يتفق الدارسون أنه يتعدّر أن نعطي تعريفاً دقيقاً لكلمة (ثقافة) أو نحدّد مفهومها، نظراً لسعة مدلولاتها، بالرغم من الكتب الكثيرة التي ألّفت حاملة الثقافة عنواناً لها، منها كتاب (الثقافة والفوضى) لـ (مايثلو أرنولد Matthew Arnold) 1889 م، وكتاب (الثقافة البدائية) لـ (إدوارد تايلور Edward Tylor) 1871 م، وفيه ما يعده النقاد أقدم تعريف للثقافة، وكتاب (الثقافة والمجتمع) لـ (ريموند وليامز Raymond Williams) 1958، وكتاب (مشكلة الثقافة) للفيلسوف الجزائري ((مالك بن نبي) 1959، الذي يعدّ امتداداً وشرحاً وتحليلاً وتركيباً للأفكار التي جاءت في أحد فصول بواكير أعماله كتاب (شروط النهضة) الذي سبق كتاب (مشكلة الثقافة) إلى النشر - بحوالي ربع قرن، إذ صدر بالفرنسية في (1948) وبالعربية (1957) وقد تناول فيها موضوع الثقافة بكل نواحيها الإيديولوجية ومؤثراتها التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي رأى أنها تنظم جميعاً تحت مظلة الأفكار⁽¹³⁾. ويقرّ بصعوبة التحديد أيضاً (تيري إغلنتون Terry Eagleton) في كتابه (فكرة الثقافة) 2000، الذي يرى فيه مترجماً أنه إنجيل الثقافة على مشارف القرن الواحد والعشرين، ورؤية عصر - للواقع والتاريخ، وطالما أن مصطلح (الثقافة) ومفهوما يتسع ليصل إلى تخوم علوم أخرى منها علم الاجتماع. فإن الثقافة في منظور علماء الاجتماع هي نماذج سلوكية يكتسبها الفرد في مجتمعه بما في ذلك اللغة والقيم والأخلاق والمعتقدات والعادات، أو ما يميّز الفكر (الإنساني وآثاره التي ينتجها عبر العصور بما في ذلك الفنون والآداب، إضافة إلى الجانب (المادي) الذي يعكس بشكل أو بآخر المستوى الحضاري الذي تُلغّنه آية أمة من الأمم في ممارساتها وإنجازاتها الثقافية فكرية وسلوكية طالما أن الثقافة مرتبطة بالذات في إنجازاتها والحضارة في تغييرها الدائم الذي يعرفه العالم في ارتباطه بإنجاز الفرد وسلوكه في المجتمع.

وقد عرض مالك بني تطوّر مفهوم كلمة (ثقافة) في القرن التاسع عشر- في ارتباطها بعلم الوقائع الاجتماعية الذي بدأ بـ (أوغست كونت) الذي يُعدّ عند الأوربيين أبا لعلم الاجتماع، حيث اتّسعت حقول الدراسة كعلم الإنسان وعلم الأجناس وعلم النفس والاقتصاد السياسي التي تتلاقى أضواؤها جميعاً مع الواقع الاجتماعي، إضافة إلى الواقع الاستعماري والمجتمعات البدائية، ومن هذا المنظور فإنّ الثقافة ذات وجوه كثيرة، بمنهج معقّد، لا يمكن أن يُدرك في صورة واحدة، فالثقافة صورة مُركّبة تنصهر فيها الأفكار والأشياء المادية، إضافة إلى الجانب النفسي- للفرد وسلوكه الاجتماعي المقترن بطابع أسلوب الحياة في المجتمع، والذي حتّى يختلف عن الطابع الذي نجده في مجتمع آخر، وهو الأمر الذي يميّز ثقافة عن أخرى.

على ضوء كلّ هذا فإنّ الثقافة تجمع بين عناصر لا مادية لحياة الناس في جماعة كالأخلاق والقانون والعرف والقيم والمعتقدات والمعايير والرموز والإيديولوجيات والفنون، وهي تنشأ عن تفاعل الفرد بفكره في الواقع الاجتماعي، فالتطور الثقافي وكلّ تغيير يلحقه مرهون بالأفكار الجديدة إلى جانب العناصر المادية من الثقافة، التي تتشكل من مجموع الأشياء وأدوات العمل وهي قوّة فاعلة لأنّها تتغيّر بشكل أسرع، غير أنّها لا تُشكّل وحدها هيكل البناء الثقافي بل لابدّ للثقافة من أفكار تبعث حركة ديناميكية في الأشياء لتدفع بعجلة ثقافة معيّنة نحو النموّ والحركة، علاوة على صلة الأفراد في المجتمع بعالم الأفكار والأشياء، وطبيعة العلاقات بين الناس وسلوكهم ونمط حياتهم الكلّي داخل مجتمعاتهم، في علاقة متبادلة تبلور الجانب العضوي من علاقة الفرد بعالم أفكاره وأشياءه المادية وسلوكه وأسلوب حياته وبين العناصر المكوّنة للثقافة، وفي الجدول التالي توضيح لمفاهيم مُركّبة تشكل الثقافة وتحدّد معالمها:



الشكل 2: المفاهيم الكلّية للثقافة

3. منزلة الثقافة من الهوية: - إنّ حديثنا عن موقع الثقافة من الهوية يقودنا إلى وحدة الثقافة المرتبطة بهويتها، على خلاف ما تدعو إليه ثقافة رعي كل شيء، وهي ثقافة نمط المجتمع الجديد، الذي تشبّطت فيه الهوية وانهارت حينما تحلّى عن مبادئه وقيمه؛ لأنّنا إذا أردنا أن نبني حضارة كما ذهب إلى ذلك المفكّر مالك بن نبي في مشروعه الثقافي الحضاري علينا أن نعيد بناء الإنسان بناءً على القيم الإنسانية والروحية التي تُميّز ثقافته، وفي حرصنا على لغتنا وثقافتنا نحرس هويتنا، لأنّ جوهر الثقافة يرتكز على

الأفكار بشكل أساسي وكبير وهي كما رأينا ترتبط في المجتمع بمقاييس أخرى على رأسها (الأشياء)، وهنا تؤدي اللغة في سياقاتها التواصلية وقولها الخطائية وأساليبها التعبيرية عن (الأفكار) في مجتمع ما دورا بالغ الأهمية لتمثيل واقع المجتمع الثقافي، والتعبير عن أساليب حياة الفرد، وسلوكاته وظواهره النفسية، وقيمه، و خبراته، كل هذا تعبر عنه اللغة، وتؤثر به، بأساليبها، ومعانيها، في سياق ثقافي كلي، من شأنه أن يُعبر بصدق عن الهوية الثقافية في تعابيشها وانسجامها وترفعها عن الجزئيات التي تعزل عن الكل المركب الذي يميز الثقافة، فيحتوي التنوع الثقافي بعاداته وتقاليده وقيمه ليسد الباب أمام التشظي الهوياتي الذي يفضي- غالبا إلى هويات قاتلة.

كما يتبين لنا مفهوم الثقافة وطبيعة العلاقة التي تربط الثقافة بالهوية، بوصف الثقافة هي التعبير الحسي- عن علاقة هذا الفرد بهذا العالم أي بالمجال الروحي الذي يمتي فيه وجوده التقسي-، فإذا ما فقد صلته بمجاله الروحي أو مجاله الثقافي فإنه يموت موتا ماديا وموتا ثقافيا، ومن ثم انسلخا أو تشظيا هوياتيا، الثقافة هي نتيجة هذا الاتصال بذلك المناخ، يصبح المجتمع ميتا من دونها لأنها تمثل له الحياة أو الشريان الذي يتدفق بدماء الحياة، وهذا ما يفسر- لنا العلاقة المتبادلة التي تكمن فيها الثقافة بين الجانب النفسي- والجانب الاجتماعي، وهي علاقة ينعكس فيها أسلوب الحياة من ناحية وسلوك الفرد من ناحية أخرى، لأنها تجمع بين الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد عبر سيرورة حياته ومراحل نشأته، وهو الأمر الذي يؤكد العلاقة الوطيدة بين الثقافة والهوية.

4. الصراع اللغوي الثقافي وأثره على الهوية: قد تعرف اللغات أو الثقافات صراعا كما تعرف احتكاكا شأنها في ذلك شأن الكائنات الحية، صراعا وتنازعا على البقاء وسعيا وراء الغلبة والسيطرة، إن صراع الثقافات واللغات بعضها مع بعض يؤدي إلى انقلابات وتطورات ثقافية ولغوية عميقة، يترك آثارا بليغة على الهوية، يحدث هذا الصراع على أثر فتح، أو استعمار، أو حرب، أو هجرة، وذلك بسبب نزوح عناصر أجنبية إلى البلد أو تجاور شعبين مختلفي اللغة والثقافة، وينشأ عن هذا الصراع نتائج كثيرة، تظهر في اللغة وتنعكس على الثقافة بشكل أو بآخر، منها: أن تتغلب إحدى الثقافتين أو اللغتين على الأخرى في إحدى الحالتين: الحالة الأولى: أن يكون كلا الشعبين همجيا قليل الحضارة منط الثقافة.⁽¹⁴⁾

والحالة الثانية: أن يكون الشعب الغالب أرقى من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته وآداب لغته وأشد منه بأسا وأوسع نفوذا، مثلما حدث مع فتح العرب المسلمين في آسيا وإفريقيا أن تغلبت لغتهم على كثير من اللغات الأخرى، وعلى اللغات القبطية والبربرية مع أن العرب في هذه البلاد كان عددها أقل كثيرا من عدد السكان الأصليين، على أن اللغات القبطية والبربرية المغلوبة لم تكد تترك أي أثر في اللغة العربية الغالبة، وذلك لأن الصراع، على طول أمده لم يكن عنيفا، ولم تلق في أثنائه اللغة الغالبة مقاومة شديدة من جانب اللغة المقهورة، والنتيجة أن تتغلب إحدى اللغتين على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان أصيلهم ودخيلهم، وأحيانا لا تقوى واحدة منها على الأخرى فتعيشان معا جنبا إلى جنب، فاللغة اللاتينية لم تقو على اللغة الإغريقية، مع أن الأولى كانت لغة الشعب الغالب، وذلك لأن الإغريق، مع خصومهم الرومان كانوا أعرق منهم حضارة وأوسع ثقافة وأرقى لغة، واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغة الفارسية، على الرغم من فتح العرب لبلاد فارس، وذلك لأن الشعب العربي لم يكن إزاء أرقى ثقافة وحضارة من الشعب الفارسي، ولقلة عدد العرب ببلاد فارس، والفرنسية لم تتغلب على عربية الجزائر تغلبا كاملا، رغم ما بذلته فرنسا من جهود ليمتد لغتها التغلب، وذلك لاختلاف اللغتين في الفصيلة، وفي كلتا الحالتين لا يتم النصر- غالبا- لإحدى اللغتين إلا بعد أمد طويل يصل أحيانا إلى قرون عديدة.

هذا الطريق الذي يسير فيها الصراع اللغوي والثقافي، والخطط التي ينفجها، والمدة التي يستغرقها، والنتائج التي ينتهي إليها، لا يجري تبعا للأهواء والمصادفات ولا وفقا لإرادة الأفراد، وإنما يخضع في سيره لقوانين جبرية، وعدم تغلب لغة على أخرى لا يحول دون تأثر كل منها بالأخرى، فقد تتأثر اللغات بغيرها

في أساليبها وآدابها وتقتبس من مفرداتها كما هو الأمر في اللغة العربية التي تركت آثارا قوية في الإسبانية والبرتغالية. نتساءل هنا ماذا يحدث حينما تتراجع اللغة عن دورها أمام هذا الصراع؟ إن تراجع اللغة عن دورها سيعرضها للتحريف والخضوع والانحطاط، ويمتد الأمر ليلقي بظلاله على الثقافة والهوية، لأن المفردات التي تقتبسها لغة ما عن غيرها من اللغات يتصل معظمها بأمور قد اختص بها أهل تلك اللغات أو برزوا فيها أو امتازوا بإنتاجها أو كثرة استخدامها، أو اعتمدوا عليهم فيها أهل هذه اللغة، أو اقتبسوها من مظاهر التفكير العام، الذي يشكل جوهر ثقافتهم وروحها، وهنا يبدو أمر الخضوع واضحا في معنى الكلمة نفسه، من تغيير أو تحريف عند انتقالها من لغة إلى أخرى أو من لهجة إلى أخرى، فقد يُخصص معناها ويقصّر - على بعض ما يدلّ عليه، وقد يعتم مدلولها الخاص وقد تستعمل في غير ما وضعت له، وقد تنحط إلى درجة وضعية في الاستعمال، وقد تسمو إلى منزلة راقية، ويأخذ أمر الخضوع منحى خطيرا لما يتعلق الأمر بالقواعد وأساليب الصوت، لأنها لا تنتقل في الغالب من لغة إلى أخرى إلا بعد صراع طويل بين اللغتين، ويكون انتقالها إيذانا بقرب زوال اللغة التي انتقلت إليها، واندماجها في اللغة التي انتقلت منها، وإيذانا في الوقت نفسه بأن ثقافة وحضارة الشعب الذي انتقلت إليه قد أخذت تتلاشى في ثقافة وحضارة الشعب الذي انتقلت منه، وقتها تفقد اللغة هويتها أمام هذا الصراع، نتيجة تراجعها أو اندماجها في لغة أخرى فإذا فقدت هذه الهوية - وهي وعاء الثقافة- أدى ذلك بالضرورة إلى تلاشي حضارة وفكر، كما تمارس اللغة الغالبة سلطتها وسيطرتها، إجراءات بالإخضاع، والقمع، والاستلاب التدريجي للقيم والمعايير، بما يتجاوز التواصل إلى الرضوخ لنظام لساني يجعل الناطقين بها يعيشون غربة لسانية وهجرة ثقافية وهوية متداعية.

5. اللغة والثقافة في مواجهة الصراع خدمة للهوية: وهنا نطرح إشكالية طرحها أحد المفكرين

المعاصرين ترتبط بقضية الهوية والانتقاء في ضوء تداعي اللغة تحت أي ظرف من الظروف كالاحتلال مثلا : «هل الهوية جوهرها اللغة أم للهوية تجليات وليست اللغة إلا أحدها» إن هذا الارتباط ليس مرهونا بالهوض باللغة، لأن التداعي الذي قد يصيب اللغة نتيجة إهمال أهلها لها أو تسلط الأجنبي عليها بالكيد والإساءة، لا يؤثر في عمق الانصهار بين رمزية الانتقاء ورمزية الوظيفة التعبيرية عنه، بل كثيرا ما يكون ضعف الحالة اللغوية سببا في تقوية الانتقاء الهوياتي⁽¹⁵⁾، فإثناء الاحتلال الفرنسي - للجزائر طُرحت مشكلة الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية لأننا وجدنا أن هذا الأدب يعبر عن الهوية، كيف ذلك؟ راح وهو يكتب باللغة الفرنسية لغة العدو يطوعها للتعبير عن قضايا الوطنية والمصرية، هذا الأدب أصبح وفيما للانتقاء رغم منفى اللغة، كما نؤكد أن التواصل والتعامل والتكلم باللغة الفرنسية لا يعني بالضرورة الانسلاخ عن الثقافة التقليدية بمفهومها المتوارث أو معالم الهوية، كما لا يعني هذا ازدواجية الهوية، لأننا أمام جمهور فُرضت عليه هذه اللغة، أو راغب فيها لاعتبارات شتى، لذلك عبر طه حسين في كتابه "نقد وإصلاح"⁽¹⁶⁾، وهو يتناول الحديث عن رواية الأديب الجزائري مولود معمري "الزبوة المنسية" عن إعجابه بهذا الكتاب الذي يعدّ دراسة اجتماعية عميقة تصوّر أهل هذه الزبوة في عزلتهم، ويصوّر تقارب شباب الزبوة تقاربا شديدا رغم تفاوت حظوظهم من الغنى والفقر، كما يصوّر حرمانهم، في المقابل ينكر طه حسين من الكتاب أنه لم يكتب بالعربية، وكان خليقا أن يكتب بها، ولكن هذا عيب لا يؤخذ به الكاتب، وإنما يؤخذ به المحتل الذي حاول فرض لغته في المؤسسات، وفي الحديث اليومي، وفي التعامل الاجتماعي، وفي المدرسة... قد تصبح لغة المحتل لغة مرغوبا فيها لأنها اللغة الوحيدة التي تعلمها هذا الشعب أو الأديب في المدرسة وإمكانه التواصل بها، وهو الأمر الذي عبر عنه الأديب الجزائري مالك حداد بأسف وهو يكتب بلغة العدو "اللغة الفرنسية هي منفاه"، لكن هل التواصل أو الكتابة باللغة الفرنسية يعني ازدواجية الهوية عند الكتاب الجزائريين؟ هنا تطرح إشكالية الهوية والانتقاء.

أغلب الدراسات تثبت أن الكتاب والأدباء الجزائريين طوعوا اللغة الفرنسية لتعبّر عن ثقافتهم القومية الموروثة وقضايا وطنهم، وأسمعوها أصواتهم، وعبروا عن رفضهم للمحتل بلغته، والتمروا وتبنوا قضية

الوطن والانتفاء بلغة العدو، لأنّ الذي يخون وطنه، قد يخونه وهو يعبر بلغته الأم، وبطبيعة الحال لا ينجح هذا الموقف المتمثل في تطويع لغة العدو/ الآخر للتعبير عن الانتفاء والهوية إلا من وعي ثقافي ووعي فكري وحضاري يحاول إثبات هويته في هذا الصراع الذي تغيب فيه لغته.

في المقابل فإنّه من تحدّيات الأصالة الثقافية التي تعدّ جزءاً من الهوية الجماعية دخولها في صراع مع الهوية التمييزية، التي اصطفت بلغة جديدة، لأنّه لا يمكن أن نتناول الحديث عن موضوع الهوية الثقافية وعلاقتها باللغة إلا ونحن نطرح في المقابل ثقافة أخرى تتأيز عنها في مقوماتها اللغوية والثقافية، فحذور الهوية تترسخ وتقوى دوماً بالوجه الثقافي الذي تعدّ اللغة جزءاً أساسياً منه، بوصفها حاضنة التراث الفكري، وناقلة لفكره المعرفي، وحينما تتعرّض الأمة لانقسام لغوي، ثنائي أو تعددي سيكون وقتها الحديث عن هوية ثقافية مشتركة بعيداً عن القاسم المشترك للمعطى اللغوي خالياً من المعنى، يصعب معه التواصل السلس بين الأفراد في مجتمع واحد، لنأخذ مثلاً اللغة العربية تمكّنت من جمع واستقطاب كثير من الأمم من الناطقين بها أو بغيرها إلى حياضها لَمّا نزل القرآن الكريم بهذه اللغة، ومن ثم امتدّ دورها واتسع نطاقها لأنّ هذه الأمم التي التفتت حول القرآن الكريم كان لا بدّ لها من اتقانها وفهم قواعدها وبلاغتها ومعجمها وصرفها ونحوها وغيرها من علوم العربية ومن ثمة ثقافتها التي تعكس هويتها، لذلك تؤكد الدراسات عبر التاريخ أنّه لا يمكن لأمة من الأمم أن تتطور بغير لغتها أو تتحصّن بغير ثقافتها.

6. خاتمة: لعلّ المتنبّع للعلاقة الثلاثية القائمة بين الهوية والثقافة واللغة، يدرك أنّها تتركز على ثوابت ترسخ معالمها، وتُحقّق تمايزها، وفي المقابل تتحكم فيها متغيّرات، وفق منظومة علائقية يتدخّل بعضها في بعض، تتأيز فيها الثوابت حاملة في طياتها بذور النهضة والحياة والحركة إذا ما صانت جوهر تميّزها أو التردّي والفوضى والحمول والتذرّر والتفتت إذا ما انفلتت واحدة من هذه الثوابت عن أداء دورها أو ترعزت عن مكانها لغيرها من الثقافات أو اللغات تحت أيّ تأثير أو ظرف من الظروف.

تتضافر جوانب معقّدة عديدة مُشكّلة ملامح الهوية منها، الجانب السوسولوجي، والديني، والسياسي، واللغوي، والثقافي، وهي روافد غالباً ما كانت سبباً في صراع مرّق الهوية وشطّرها إلى هويات قاتلة، لذلك يُطرح مطلب الهوية الثقافية ليسدّ باب الخلاف، ويعزّز الاختلاف ويحتضنه بوصفه آلية إشراء، ووسيلة تعايش فيما يشترك فيه المجتمع من قيم راسخة، وعادات متنوعة، ولغات متعدّدة، بما يشكل حصانة ثقافية وأمنًا فكريًا.

كما وجب علينا أكثر من أي وقت مضى- أن نحرس هويتنا في أصالتها، بحقيقتها المطلقة، وصفاتها الجوهرية، القائمة على جوهر الذات في كينونتها وتفرّدها بمعاييرها الخاصة المستقلة عن بقية الدّوات الأخرى، بقيمها الإنسانية، التي يترع على عرشها عقل اليقين، لئلا يعيش الإنسان اغتراباً بينه وبين ذاته، وبينه وبين عالمه، يطوف به في تجربة التمزّق النفسي، والاضطراب الوجودي، والغربة الذاتية لتقذف به إلى مهاوي التهميش والأزمات والصراعات التي تسيطر على وعيه وتهتّد أمنه اللغوي والثقافي وتهوي بالذات بعيداً عن القيم التي طالما صانتها الهويات التليدة.

الإحالات:

- 1- أيوب بن موسى الحسيني أبو البقاء الكفوي، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر- والتوزيع، بيروت- لبنان، ط: الثانية، 1419هـ/ 1998م، ص: 961.
- 2- مجموعة مؤلّفين، المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت- لبنان، ط: 38، 2000، ص: 875- 876.
- 3- ينظر: محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر- منشورات تالة- الأبيار- الجزائر، 2003، ص: 89- 90.
- 4- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط: 21، 1440هـ- 2019م، ص: 20.
- 5- ينظر: فتحي المسكيني، الهوية والزمان، تأويلات فينومينولوجية لمسألة "النحن"، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط: الأولى، 2001، ص: 7 وما بعدها.
- 6- أحمد ياسين السليمان، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، دار الزمان للطباعة والنشر- والتوزيع- دمشق- سوريا، ط: الأولى، 2009، ص: 404 - 407.

- 7- أمين معلوف، الهويات القاتلة "قراءات في الانتماء والعولمة"، ترجمة: نبيل محسن، ورد للطباعة والنشر- والتوزيع، دمشق، سوريا، ط: الأولى، 1999م، ص: 8 و 25.
 - 8- ينظر في ذلك: إليكس ميكشيللي، الهوية، ترجمة: علي وطفة، تنفيذ، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، سوريا، ط: الأولى، 1993، ص: 18 وما بعدها.
 - 9- ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، ط: 1، بيروت- لبنان، ج: 1، 1952، ص: 33.
 - 10- ينظر: مجمع اللغة العربية، القاهرة، المعجم الوسيط، دار إحياء التراث العربي، ج: 2، ص: 830.
 - 11- مصطفى حركات، العربية بين البعد اللغوي والبعد الاجتماعي، دار الآفاق، الجزائر، 2017، ص: 09.
 - 12- ينظر: علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، عكاظ للنشر- والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، ط: 4، 1403هـ/ 1983م، ص: 77 - 141 - 142.
 - 13- ينظر: جميلة بكوش، معالم النقد الثقافي في الجزائر، دار خيال للنشر والترجمة، الجزائر، ط: الأولى، 2021، ص: 32 وما بعدها.
 - 14- علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، ص: 82، 84.
 - 15- عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، لبنان، ط: الأولى، 2014، ص: 92، 94.
 - 16- طه، حسين، 2013، نقد وإصلاح، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص: 44 وما بعدها.
- قائمة المصادر والمراجع:**
1. أحمد ياسين السليمان، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، دار الزمان للطباعة والنشر- والتوزيع- دمشق- سوريا، ط: الأولى، 2009.
 2. إليكس ميكشيللي، الهوية، ترجمة: علي وطفة، تنفيذ، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، سوريا، ط: الأولى، 1993.
 3. أمين معلوف، الهويات القاتلة "قراءات في الانتماء والعولمة"، ترجمة: نبيل محسن، ورد للطباعة والنشر- والتوزيع، دمشق، سوريا، ط: الأولى، 1999م.
 4. أيوب بن موسى الحسيني أبو البقاء الكفوي، الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط: الثانية، 1419هـ/ 1998م.
 5. جميلة بكوش، معالم النقد الثقافي في الجزائر، دار خيال للنشر والترجمة، الجزائر، ط: الأولى، 2021.
 6. ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، ط: 1، بيروت- لبنان، ج: 1، 1952.
 7. طه حسين، نقد وإصلاح، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013.
 8. عبد السلام المسدي، الهوية العربية والأمن اللغوي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، لبنان، ط: الأولى، 2014.
 9. علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، ط: 4، 1403هـ/ 1983م.
 10. فتحى المسكين، الهوية والزمان، تأويلات فينومينولوجية لمسألة "النحن"، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط: الأولى، 2001.
 11. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط: 21، 1440هـ- 2019م.
 12. مجمع اللغة العربية، القاهرة، المعجم الوسيط، دار إحياء التراث العربي، ج: 2.
 13. مجموعة مؤلفين، المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت- لبنان، ط: 38، 2000.
 14. محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر- منشورات تالة- الأبيار- الجزائر، 2003.
 15. مصطفى حركات، العربية بين البعد اللغوي والبعد الاجتماعي، دار الآفاق، الجزائر، 2017.